

مكة المكرمة

كما وصفها ابن جبير وابن بطوطة

إعداد

د. عيسى محمود العزام / أستاذ مساعد

دكتوراه تاريخ وحضارة إسلامية

جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية

كلية العلوم والآداب

قسم العلوم الإنسانية

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

يتناول البحث مدينة مكة المكرمة من حيث : موقعها الجغرافي (الموقع والمناخ وأبواب مكة)، ومشاهدها المقدسة ، والحياة الاقتصادية ، وصور من الحياة الدينية والاجتماعية فيها . ويستخلص من البحث النتائج التالية :

١ - سجل ابن جبير وابن بطوطة معلومات دقيقة عن مكة من حيث: موقعها، والجبال المحيطة فيها، ومناخها، وآبارها، وأبوابها، ومشاهدها المقدسة، وأوضاعها الاقتصادية وصفات سكانها، وعاداتهم، والاحتفالات التي تقام فيها.

٢ - تحدث ابن جبير بصورة شمولية عن أوضاع مكة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ثم جاء ابن بطوطة فزار مكة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فجاءت معلوماته عن مكة مطابقة في أغلب الأحيان لما أورده ابن جبير لأنه نقل منه في أغلب الأحيان.

٣ - مكة مدينة كبيرة مستطيلة متصلة البنيان تقع في بطن واد غير ذي زرع كما أخبر القرآن الكريم، تحيط بها الجبال من كل جانب، ومناخها حار جداً وبخاصة في فصل الصيف، وأمطارها قليلة ، لذلك اقتصاد مكة يعتمد على التجارة، فالتجار يقصدونها من جميع أنحاء العالم الإسلامي، فتغص دائماً بالنعم والفواكه والخضراوات جميعها، وتقام بها الأسواق العظيمة.

٤- المسجد الحرام يقع في وسط مدينة مكة ، وهو قريب من الترييع، والكعبة المشرفة تقع وسط المسجد الحرام، وهي بناء مربع، وقد سجل ابن جبير وابن بطوطة معلومات دقيقة عن بنائهما، ومساحتهما وزخرفتهما، وأوصافهما، وأبوابهما، وكسوة الكعبة.

٥- يقيم أهل مكة وسائر المسلمون فيها احتفالات كبرى باستهلال الشهور، وتبلغ الاحتفالات ذروتها في غرة رجب، وليلة نصف شعبان، وغرة كل من رمضان وشوال وذو الحجة، وقد وصف ابن جبير وابن بطوطة هذه الاحتفالات بدقة والتي تتميز بالطابع الديني، ويشتهر أهل مكة بالزهد ومكارم الأخلاق، والإيثار للضعفاء والمنقطعين.



مكة المكرمة ^(١) كما وصفها ابن جبير وابن بطوطة

المقدمة:

الرحلة وسيلة مهمة لكسب المعرفة والتعرف على الأقاليم والإنسان منذ أقدم العصور، ولا تزال تعد من أبرز الوسائل وأهمها للحصول على المعرفة، لذلك حظيت الرحلة باهتمام القدماء والمحدثين على حد سواء، لقد كانت عيون الرحالة دائماً بمنزلة الكاميرا التي تصور كل ما يتعلق بالبلدان والمجتمعات البشرية، فكتب الرحالة

(١) مَكَّةُ: يذكر ياقوت الحموي آراء عدة لأسباب تسمية مكة بهذا الاسم منها: لأنها: تُمك الجبارين أي تذهب نخوتهم، وذكر أنها سميت مكة لآزدحام الناس بها، ويقال: إنما سميت مكة: لأن العرب في الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة، فنمك فيه، أي نصفر صفير المكاء حول الكعبة، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها، والمكاء طائر يأوي الرياض، وقيل سميت مكة لأنها: بين جبلين مرتفعين عليها، وهي في هبطه بمنزلة المكوك، وقيل سميت مكة من تمك الثدي أي تمصه لقله مائها، لأنهم كانوا يمتلكون الماء يستخرجونه، وقيل: إنما تمك الذنوب أي تذهب بها كما يمك الفصيل ضرع أمه فلا يبقى فيه شيئاً، وقيل لأنها: تمك من ظلم أي تنقصه، ويذكر ياقوت أن لمكة أسماء أخرى مثل: بكة والنساسة وأم رُحْم وأم القرى ومعاد والحاطمة، لأنها تحطم من استخف بها، وسمي البيت العتيق لأنه عتق من الجبابرة، والرأس: لأنها مثل رأس الإنسان، والحرم وصلاح والبلد الأمين، والعرش والقادس لأنها تقُدس من الذنوب أي تطهر، والمقدسة والناسة والباسة لأنها تثبت أي تحطم الملحدين وقيل تخرجه، وسمها الله تعالى: "أم القرى" قال تعالى: "لتنذر أم القرى ومن حولها" دليل على فضلها على سائر البلاد، وسمها الله تعالى "البلد الأمين" قال تعالى: "والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين". لمزيد من المعلومات انظر: ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م): معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م، ج ٥، ص ١٨١ - ١٨٢، وانظر أيضاً: ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م): مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٠

قدمت لنا معلومات قيمة عن أحوال البلدان الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والدينية.

لقد تنوعت دوافع الرحالة المسلمين ما بين الحج وطلب العلم والمعرفة وحب الاستطلاع وبخاصة ابن جبیر، وابن بطوطة موضوعا الدراسة، فابن جبیر في مقدمة كتابه يقول: "وكان انفصال... محمد ابن جبیر من غر ناطة،^(١) حرسها الله للنية الحجازية المباركة"،^(٢) في حين قال ابن بطوطة: "كان خروجي من طنجة"^(٣) مسقط رأسي.. معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام".^(٤)

فابن جبیر هو أبو الحسین محمد بن أحمد الكناسي

(١) غر ناطة: معنى غر ناطة رمانه بلسان عجم الأندلس سمي البلد بذلك لحسنه، وهي أقدم مدن كوره البيرة من أعمال الأندلس وأعظمها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر القلزم في القديم ويعرف بنهر حداره، وبينها وبين البيرة أربعة فراسخ، وبينها وبين قرطبة ثلاثة وثلاثون فرسخا. ياقوت معجم البلدان، ج٤، ص٤٣.

(٢) ابن جبیر، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م): تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار المعروف برحلة ابن جبیر، طبعة جديدة ومنقحة بإشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١، ص٧.

(٣) طنجة: مدينة قديمة على ساحل بحر المغرب مشرفة على مضيق جبل طارق، مقابل الجزيرة الخضراء في الأندلس، وبين طنجة وسبته مسيرة يوم واحد، وهي آخر حدود أفريقية، وبينها وبين القيروان ألفا ميل. ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٤٣.

(٤) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة، شرحه وكتب حواشيه طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م، ص ٣١.

الأندلسي، ولد في بلنسية^(١) / الأندلس سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، ودرس علوم القرآن والفقه والحديث، وقامت شهرته في التراث العربي الإسلامي من خلال كتابه الذي عرف بـ "تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار - المعروف بـ رحلة ابن جبير"، حيث دون فيه خلاصة تجاربه ومشاهداته، وقد استغرقت رحلته حوالي ثلاث سنوات بدأت في شوال سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م، وانتهت في محرم سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م،^(٢) وتوفي سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م، وامتدت رحلته لمكة المكرمة من شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م إلى شهر محرم سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م، وقد أعطى وصفاً دقيقاً لمكة المكرمة وآثارها ومشاهدها المقدسة وعادات أهلها.

وتعتبر رحلة ابن جبير من أبرز كتب الرحلات في الأدب الجغرافي العربي نظراً لدقة ملاحظاته وصدق لهجته وقيمة معلوماته ودقتها، وقد طاف ابن جبير في شمال أفريقيا ومصر وبلاد الشام والحجاز والعراق وبعض جزر البحر المتوسط، سجل فيها مذكراته اليومية خلال تلك الرحلة، فصور فيها المعالم الجغرافية للبلدان التي زارها وتحدث عن أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية

(١) بلنسية : كوره ومدينة مشهورة في الأندلس ،متصلة بحوزة كوره تدمير ، وهي شرق قرطبة ، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار ، وتعرف بمدينة التراب ، وتتصل بها مدن تعد في جملتها . ياقوت ،

معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٣٠

(٢) ابن جبير، رحلة، مقدمة المحقق، ص ٥.

والعمرانية والدينية: (١)

أما ابن بطوطة فهو محمد بن عبد الله اللواتي، ويكنى بأبي عبد الله، ولد في طنجة في ١٧ رجب ٧٠٣هـ / شباط ١٣٠٤م، وقد تعلم القراءة والكتابة والفقه والأدب وفنون الشعر، وهو ينحدر من بيت فقهاء، تولى الكثير من أفراد القضاة، وعندما بلغ سن الواحد والعشرين عزم على السفر إلى مشرق العالم الإسلامي بغية الحج وطلب المعرفة وحب الاستطلاع، وقد بدأت رحلته في رجب سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، واستمرت رحلته زهاء الثلاثين سنة، أمضى خمس وعشرون سنة في المشرق وخمس سنوات في الأندلس وبلاد السودان، وأكملها في سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م، وقد توفي في طنجة سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م. (٢) ودون خلاصة مشاهداته في كتاب أسماه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار - المعروف بـ رحلة ابن بطوطة"، وقد قدر ما قطعه في رحلاته بما يربو على خمسة وسبعين ألف ميل، (٣) وقد زار ابن بطوطة مصر وبلاد الشام والحجاز والعراق وفارس ومعظم أنحاء جزيرة العرب وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي، وبلاد آسيا الوسطى والصغرى، والهند

(١) شاكر خصبك، ابن بطوطة ورحلته، منشورات دار الآداب، بيروت، د. ت.، ص ٨.

(٢) لمزيد من المعلومات انظر: المرجع نفسه، ص ٥ - ٣٥.

(٣) الميل: يساوي أربعمئة ذراع شرعية أي حوالي ٢ كم مربع. هنتس، فالتر: المكايل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠، ص ٩٥.

والصين ، وشرق أوروبا ، وبلاد المغرب والأندلس والسودان .^(١)

وكانت رحلته إلى مكة المكرمة من شوال سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م ، إلى أواخر ذي الحجة ، ثم عاد إلى مكة لأداء فريضة الحج سبع مرات في السنوات ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م ، ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م ، ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م ، ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م ، ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م ، ٧٣٢هـ / ١٣٣١م ، ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م وقد وصف مكة وآثارها وجبالها ومشاهدها المقدسة وعادات أهلها ووجهاءها ، وجاء حديثه عن مكة المكرمة مطابقاً في أغلب الأحيان لما ورد عند ابن جبير ، لأنه نقل منه في كثير من الأحيان ، لكن معلومات ابن جبير كانت أكثر دقة وتوسعاً وشمولية.

وتركز هذه الدراسة على مدينة مكة المكرمة من حيث جغرافيتها (الموقع والمناخ ومصادر المياه) ، وأبوابها ، ومشاهدها المقدسة ، والحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية فيها ، وقد أورد كل من ابن جبير وابن بطوطة معلومات قيمة عن مكة ، لذا ستكون رحلتاهما المصدرين الرئيسيين للبحث ، كما ستكون الاقتباسات منهما ، غير أنه سيشار في الهوامش إلى مصادر أخرى توثق بعض ما ورد في الرحلتين أو توضحه وتتوسع فيه أو تخالفه وتتناقضه .



(١) شاكِر خصباك :رحلة ابن بطوطة ، ص٩

جغرافية مكة المكرمة (الموقع والمناخ)

الموقع :

مكة مدينة كبيرة مستطيلة متصلة البنيان تقع في بطن واد غير ذي زرع، تحيط به الجبال من كل جانب، ولا تبدو المدينة لقاصدها إلا إذا اقترب منها " تسع من الخلائق مالا يحصيه إلا الله عز وجل"،^(١) "وبناؤها" من حجارة سود وبيض ملس وعلوها آجر كثيرة الأجنحة من خشب الساج وهي طبقات لطيفة مبيضة".^(٢)

والجبال المشرفة على مكة ليست مفرطة الشموخ، من أبرزها جبل أبي قبيس الذي يقع إلى الجنوب منها، وهو جبل أدكن (أميل إلى البياض) يشرف على الصفا، وسمي بهذا الاسم لأن أول من سكن فيه رجل يكنى بأبي قبيس^(٣) وبأعلى الجبل مسجد وأثر رباط وعمارة، وهو مطل على الحرم الشريف وجميع البلد، ومنه يظهر حسن مكة وجمال حرمها واتساعها، وفي الجبل موضع موقف

(١) ابن جبير، رحلة، ص٧٧: ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٤.

(٢) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٩م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل، ط٢، ١٩٦٧م، ص ٧١ - ٧٢: ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٨٧

(٣) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٤: انظر أيضاً البكري، أبوعبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢م، ص ٤٠١؛ مؤلف مجهول (ق ٦هـ / ١٢م)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥م، ص ٥..

الرسول عليه السلام حين انشق له القمر.^(١)

ويقع جبل قعيقعان في الجهة الغربية من مكة، وفي الشمال منها الجبل الأحمر، وفي الشرق جبل حراء على مقدار فرسخ^(٢) أو نحوه مشرف على منى، وهو مرتفع في الهواء عالي القمة، كان الرسول عليه السلام كثيراً ما ينتابه للتعبد فيه، وفيه أتاه الحق من ربه وبدأ الوحي^(٣).

المناخ ومصادر المياه :

طقس مكة حار جداً وبخاصة في الصيف، إلا أن ليلها طيب، وأمطارها قليلة،^(٤) ويصف ابن جبير مناخ مكة في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م بقوله: "وبطيب هوائها في هذا العام، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها، وانكسار حدة سمومها، وكنا نبئت في سطح الموضع الذي كنا نسكنه، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه، وذلك أمر مستغرب بمكة".^(٥)

وليس بمكة ماء جار ، ومصادر المياه فيها تعتمد على

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٧٩، ابن بطوطة، رحلة، ص ١٦٥.

(٢) الفرسخ: يتألف من ٣ أميال، كل ميل ١٠٠٠ باع، كل باع أربعة أذرع شرعية، أي أن طول الفرسخ حوالي ٦ كم، هنتس، ص ٩٤.

(٣) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٤، ١٦٦.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧١ - ٧٢؛ ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٨٧.

(٥) ابن جبير، رحلة، ص ٨٩.

الأمطار^(١)، لذلك تم إقامة كثير من الأحواض والمصانع العظيمة التي بلغ تكاليف إنشائها بعضها عشرة آلاف دينار "وتملاً هذه الأحواض والمصانع من السنين الخصبة التي تجود فيها السماء بالماء".^(٢)

ويوجد بمكة ماء زمزم، وقد وصف ابن جبير ماء زمزم وفوائده بقوله: "هذا الماء المبارك في أمره عجب، وذلك أنك تشربه عند خروجه من قرارته، فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئاً، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية.. ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك أن الإنسان ربما وجد من الإعياء وفتور الأعضاء.... فيصب من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة والنشاط لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه"^(٣)، وهناك آبار عذبة عميقة خارج مكة كأبار الشبيكة^(٤)، وآبار الزاهر، على طريق التتعيم^(٥)، يجلب منهما السقاؤون الماء إلى مكة^(٦).

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٨٧.

(٢) ناصر خسرو، أبو معين الدين القبادياني المروزي (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م): سفرنامه، ترجمة أحمد خالد البدلي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م، ص ١٤٠.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٩٠. عن فضائل ماء زمزم انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٤٠٦ - ٤١٥.

(٤) الشبيكة، واد قرب العرجاء في بطنه ركايا كثيرة مفتوح بعضها إلى بعض، وهي بين مكة والزاهر على طريق التتعيم، ومنزل من منازل حاج البصرة بينه وبين وجرة أميال وهي الآن داخل عمران مكة انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٢٤.

(٥) التتعيم: موضع بمكة في الحل وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة، انظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٩.

(٦) ابن جبير، رحلة، ص ٧٩؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٦٥. ويذكر الفاسي أن جملة الآبار التي يحتوي

أبواب مكة:

لمكة المكرمة ثلاثة أبواب هي^(١):

١. باب المعلى: يقع بين الشرق والشمال من مكة، وهو إلى المشرق أميل، وعلى هذا الباب طريق الطائف والعراق والصعود إلى عرفات والخروج إلى الجبانة المباركة في الموضع المعروف بالحجون، وبهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء.

٢. باب المسفل: يقع جنوب مكة، وعليه طريق اليمن.

٣. باب الزاهر: يقع غرب مكة، ويعرف أيضاً بباب العمرة أو الشبيكة، وعليه طريق الشام وجدة ومدينة الرسول عليه السلام، ومنه الخروج إلى التعيم التي تبعد عن مكة نحو فرسخ.

عليها سور مكة ثمانية وخمسون بئراً، وبين باب المعلاة ومنى سبعة عشر بئراً، وبمنى خمسة عشر بئراً، وبالمزدلفة ثلاثة آبار، وعدة آبار بعرفة، وبظاهر مكة خمسة عشر بئراً، وبأسفل مكة في جهة التعيم ثلاثة وعشرون بئراً بجادة الطريق، وعن أسماء هذه الآبار انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٥٤٣ - ٥٥٢.

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٧٧ - ٧٩: ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٤، ١٦٣.

المشاهد المقدسة في مكة :

المسجد الحرام والبيت العتيق (الكعبة):

يقع المسجد الحرام في وسط مدينة مكة ، وهو قريب من التريبع ، مبني من الحجارة الصم السمر ، تبلغ مساحته ستة أفدنة^(١) ونصف وربع^(٢) ، طوله من الشرق إلى الغرب حسب ما يذكر ابن جبير أربعمائة ذراع^(٣) ، وعرضه ثلاثمائة ذراع^(٤) ، بينما يذكر مصنف كتاب الاستبصار أن طول المسجد أربعمائة وسبعة أذرع ، وعرضه مائتين وثمانون ذراعاً^(٥) ، في حين يذكر ابن بطوطة أن طول المسجد يزيد على أربعمائة ذراع وعرضه يقرب من ذلك^(٦) .

وارتفاع جدران المسجد نحو عشرين ذراعاً ، وسقفه من خشب الساج المذهب المنقوش ، يقوم على أعمدة طوال دقيقة الصنعة جميلة

(١) الفدان :مقياس المساحة المصري المفضل ويساوي أربعمائة قصبة مربعة ، والقصبة تساوي ٣٩٩ سم ، وتقدر مساحة الفدان في العصور الوسطى ب (٦٣٦٨) متر مربع . هنتس ، المكايل ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) ابن الضياء ، أبو البقاء محمد بن أحمد المكي الحنفي (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م) : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة ، تحقيق علاء إبراهيم الأزهرى وأيمن نصر الأزهرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧ م ، ص ١٥٤ .

(٣) الذراع : ذراع المساحة يساوي (٦٦,٥٠٠ سم) وعن الأذرع في الإسلام انظر : هنتس ، المكايل والأوزان ، ص ٨٣ - ٩٣ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ، ص ٦٠ .

(٥) الاستبصار ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٦) ابن بطوطة ، رحلة ، ص ١٥٥ .

المنظر^(١) ، بلغ عددها مائة وأربعة وثمانين عموداً^(٢) ، مصطفة ثلاثة صفوف ، وقد انتظمت بلاطاً ته الثلاث انتظاماً عجيباً كأنها بلاط واحد ، وعدد سواريه الرخامية كما يذكر ابن جبير أربع مائة وواحد وسبعون سارية^(٣) ، في حين يذكر مصنف كتاب الاستبصار أن سوارى المسجد أربع مائة وسبعون سارية^(٤) ، لكن ابن بطوطة يؤكد أن سوارى المسجد أربع مائة وإحدى وتسعون سارية "ما عدا الجصية التي في دار الندوة المزیدة في الحرم" ، وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ، ويقابلها المقام (إبراهيم عليه السلام) ، مع الركن العراقي ، وفضاؤها متسع متصل يدخل من هذا البلاط إليه ، ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب^(٥) تحت قسي حنايا^(٦) ، يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون ، وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها ، وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا ، وعند

(١) المصدر نفسه ، ١٥٥ : ابن الضياء ، تاريخ مكة ، ص ١٥٤ .

(٢) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٤٥ .

(٣) ابن جبير ، رحلة ، ص ٦٠ .

(٤) كتاب الاستبصار ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٥) المساطب : من سطب ، وهي المكان الذي يجلس الناس عليه ، ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري : لسان العرب ، ١٨ جزء ، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ، ومحمد صادق العبيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٦ م ، ج ١١ ، مادة سطب ، ص ٢٥٤ .

(٦) الحنايا : هي جمع حنية أو حنى ، وتعني القوس . ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٣ ، مادة " حنى " ص ٣٧١ .

باب إبراهيم عليه السلام مدخل من البلاط الغربي فيه سواري جصية^(١).

وتقع الكعبة المشرفة^(٢) وسط المسجد الحرام، وهي بناء مربع، مبنية بالحجارة الكبار الصم السمر "قد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشدّه"^(٣)، وارتفاع الكعبة كما يذكر ناصر خسرو^(٤)، ومصنف كتاب الاستبصار^(٥) ثلاثون ذراعاً، بينما يؤكد كل من ابن جبير وابن بطوطة أن ارتفاع الكعبة من الجهات الثلاث ثمانية وعشرون ذراعاً، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسعة وعشرون ذراعاً بسبب انصباب السطح^(٦) إلى الميزاب^(٧).

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٥. لمزيد من المعلومات عن سواري المسجد الحرام انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

(٢) للكعبة أسماء شريفة عدة منها: الكعبة، بكه، البيت الحرام، البيت العتيق، قادس، نادر، القرية القديمة، وسميت الكعبة بهذا الاسم لتكعيبها وهو تدويرها. الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٢٠٦.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٦٧.

(٤) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤٨.

(٥) كتاب الاستبصار، ص ١٢.

(٦) ابن جبير، رحلة، ص ٥٣؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٧) الميزاب: يقع في أعلى الصفح الذي يلي الحجر، وهو من الذهب وسعته شبر واحد، وهو بارز بمقدار ذراعين، وتحت الميزاب في صحن الحجر قبر إسماعيل عليه السلام، وعليه رخامة خضراء مستطيلة =

أما عن مقاييس الكعبة^(١) فيؤكد ابن بطوطة أن عرض صفحتها التي من الركن العراقي (جهة الشمال) إلى الحجر الأسود (الشرق) أربعة وخمسون شبراً^(٢)، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني (الجنوب) إلى الركن الشامي (الغرب)،

على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة، وكلتاهما سعتها مقدار شبر، غريبة الشكل، رائقة المنظر، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هاجر عليها السلام، وعلامته خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف، وبين القبر سبعة أشبار، انظر: ابن جبير: رحلة، ص ٥٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٧.

(١) تتباين آراء الرحالة والجغرافيين حول مقاييس الكعبة والمسجد الحرام، فما ذكره ابن جبير وابن بطوطة لا يتفق مع ما ذكره مصنف كتاب الاستبصار المعاصر لابن جبير، حيث يذكر أذرع الكعبة من الخارج؛ فطول وجه الكعبة من الركن الأسود إلى الركن الشامي (٢٧) ذراعاً، وكذلك الطول من الركن اليماني إلى الركن الغربي (٢٧) ذراعاً، وعرضها من ناحية الركن اليماني إلى الركن الأسود (٢٦,٥) ذراعاً، وعرضها من الركن الغربي إلى الركن الشامي (٢٤) ذراعاً، أما ذراع الكعبة من الداخل: فطول الجدار من الركن الغربي إلى الركن اليماني (٢٢) ذراعاً، وطول الجدار الذي في الباب من الركن الأسود إلى الركن الشامي (٢٩) ذراعاً، وعرض الجدار الشامي الذي بين الركن الغربي والركن الشامي (١٥,٥) ذراعاً، وعرض الجدار اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني (١٧,٥) ذراعاً، ولم أتمكن من معرفة مقاييس الكعبة بدقة، انظر: الاستبصار، ص ١٠ - ١٢. ولمزيد من المعلومات حول ذراع الكعبة من داخلها وخارجها انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ١٧٦ - ١٧٧، الأزرق، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت بعد سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م)، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزء ١، تحقيق رشدي الصالح ملحق، ط ٢، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، ١٩٦٥م، ج ١، ص ٢٨٩ - ٢٩٢.

(٢) الشبر يساوي اثنا عشر إصبعاً، ويبلغ الإصبع من حيث الأساس ١/٢٤ من الذراع، والغالب في الأوزان والمكاييل الإسلامية مقياسان، إصبع الذراع الشرعية أي ٨٧٥، ٤٩٪ = ٢٤، ٠٧٨ سم، وإصبع ما يسمى بالذراع السوداء، أي ٥٤، ٠٤٪ = ٢٤، ٢٥٢ سم، وفي ضوء ذلك فإن الشبر وفقاً لإصبع الذراع الشرعية يساوي ٩٣٦، ٢٤ سم، هنتس، المكاييل، ص ٨١.

وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً، كذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني إلى الحجر الأسود، ومثل ذلك من الركن الشامي إلى الركن العراقي، وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً، والطواف من خارج الحجر^(١).

وداخل الكعبة الشريفة مبسوط بالرخام الأبيض (المجزع)، وكذلك جميع جدران الكعبة مرخمة بالرخام الأبيض تقدر بتسعة أذرع، وما فوق ذلك مطلي بالفضة المذهبة إلى السقف^(٢)، وفي ترخيم جدر الكعبة ألواح حمروخضر^(٣)، وسمك جدران الكعبة خمسة أشبار^(٤)، وسقف الكعبة يقوم على ثلاثة أعمدة طوال من خشب الساج^(٥)، وبين العمود والآخر أربع خطوات -الخطوة تعادل ثلاثة أشبار- وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة^(٦) و سطح الكعبة مغطى بالخشب الثمين المبطن بالحريز، وحواف السطح مغطاة برخام يمني شفاف كشفافية البلور، وللکعبة أربعة مساقط

(١) ابن بطوطة، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) ابن جبير، رحلة، ص ٥٣ - ٥٤، الاستبصار، ص ١٣ - ١٥؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٤٩.

(٣) الاستبصار، ص ١٣.

(٤) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦؛ ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٤٩.

(٦) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٦.

للضوء، كل مسقط في ركن من أركان الكعبة الأربعة، وقد غطي كل مسقط بغطاء زجاجي يسمح بمرور ضوء الشمس، ويمنع تسرب مياه الأمطار إلى جوف الكعبة.^(١)

وفي الجانب الغربي من الكعبة ستة محاريب مصنوعة من الفضة الخالصة، معلقة في الجدار بمسامير، وارتفاع كل محراب عن الأرض قد ر رجل، والمحاريب في غاية الدقة والمهارة وهي من الذهب الإبريز ذات نقوش سوداء كأنها تحاريق.^(٢)

أما الحجر الأسود فيقع في الجهة الشرقية من الكعبة^(٣) مابين الركن الشامي والركن الغربي وأرضه مفروشة برخام^(٤)، وطول الحجر قدر شبر وعقدة (أربع أصابع)، وعرضه قدر ثمانية أصابع (ثلاث شبر)، وشكله مدور^(٥)، وفيه أربع قطع ملصقة، وجوانبه مشدودة بصفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر، "فتتجلي منه العيون حسناً باهراً، ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم حتى يود اللاتم أن لا يقلع فمه عنه"، وارتفاع الحجر عن الأرض ستة أشبار،

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٥٦؛ ابن بطوطة، ص ١٥٧.

(٤) الأزرقى، أخبار مكة، ج ١، ص ٣٢٠.

(٥) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٧.

فالطويل من الناس ينحني لتقبيله والصغير يتطاوّل إليه.^(١)

ومن عند الحجر الأسود ابتداء الطواف، وهو أول الأركان التي يلقاها الطائف، فإذا استلمه تقهقر عنه قليلاً، وجعل الكعبة الشريفة عن يساره، ومضى في طوافه، ثم يلقى بعده الركن العراقي ثم الشامي ثم اليماني ثم يعود إلى الحجر الأسود^(٢). "وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً، منها سود وسمر وبيض قد ألصق بعضها إلى بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خطاً (أي خطوات) إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به، وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض".^(٣)

وبين باب الكعبة (الجهة الشرقية) والركن العراقي مقام إبراهيم عليه السلام وموضع المقام طوله اثنا عشر شبراً، وعرضه نحو خمسة أشبار ونصف، وارتفاعه نحو شبراً وشبرين، وعلى المقام قبة خشب تحتها شباك حديد مقفل، ومن ورائه موضع محور، قد جعل مصلى لركعتي الطواف.^(٤)

ويقابل الحجر الأسود قبة بئر زمزم، وبينهما أربع وعشرون

(١) المصدر نفسه، ص ١٥٧ - ١٥٨. ويذكر الفاسي أن طول الحجر الأسود ثلاثة أذرع، وأن ارتفاع الحجر من أرض المطاف ذراعان وربع وسدس ذراع بذراع القماش المستعمل بمصر. انظر الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٣١٥.

(٢) ابن جبير، رحلة، ص ٥٦، ٥٩؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٨.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٥٦ - ٥٧.

(٤) ابن جبير، رحلة، ص ٥٥؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٨.

خطوة، وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض، وتور البئر المباركة في وسط القبة، وهو من الرخام البديع الإلصاق، مفروش بالرخام، ومحيطه أربعون شبراً، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، وعمق البئر إحدى عشرة قامة، وباب القبة إلى جهة الشرق، وقد استدارت بداخله سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل ذلك، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء.^(١)

ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه وبابها جهة الشمال، ويجعل فيها ماء زمزم في قلال تسمى الدوراق، وكل دورق له مقبض واحد، وبها مكان لحفظ الكتب والمصاحف الشريفة وأتوار الشمع.^(٢)

أما باب الكعبة فيقع في الجهة الشرقية بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار وذلك الموضع يسمى بالملتزم، وارتفاع الباب عن الأرض^(٣) أحد عشر شبراً ونصف، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً^(٤)، وعرض

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٣) يختلف آراء الرحالة والجغرافيون فيما يتعلق بارتفاع باب الكعبة عن الأرض، فيؤكد ناصر خسرو أن ارتفاع الباب قدر أربعة أذرع، في حين يذكر مصنف كتاب الاستبصار أن ارتفاع الباب خمسة أذرع. ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤٨؛ كتاب الاستبصار، ص ١٧.

(٤) يذكر ناصر خسرو أن طول باب الكعبة ستة أذرع ونصف الذراع، بينما يذكر مصنف كتاب الاستبصار أن طول الباب سبعة أذرع ونصف ذراع. انظر: ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤٨، كتاب

الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار^(١)، والباب مصنوع من خشب الساج^(٢)، المصفح بصفائح الفضة المذهبة البديعة الصنعة^(٣)، وزينت واجهة الباب وأطرافه آيات قرآنية مكتوبة بالفضة المذهبة، وتتخلل الكتابة تحاريق سوداء^(٤)، وعتبته العليا مصفحة بالفضة، وله نقارتان كبيرتان من فضة عليها قفل.^(٥)

ويفتح باب الكعبة الكريم أول بزوغ الشمس يومي الاثنين والجمعة من كل أسبوع،^(٦) ويوم مولد النبي عليه السلام،^(٧) وطيلة أيام رجب،^(٨) ويؤكد ناصر خسرو أن باب الكعبة يفتح أيضاً في منتصف شهر شعبان، ومنتصف رمضان، وأيام الاثنين والخميس

=

الاستبصار، ص ١٦. في حين يذكر الأزرقى أن طول باب الكعبة ستة أذرع وعشرة أصابع، انظر:

الأزرقى، أخبار مكة، ج ١، ص ٣٠٧

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٥٣: ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤٨.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٥٣: ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٦.

(٤) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ١٤٨. ولمزيد من المعلومات عن صفة باب الكعبة انظر: الأزرقى، أخبار

مكة، ج ١، ص ٣٠١ - ٣٠٩.

(٥) كان قفل الباب من النحاس الأحمر المذهب، بعضه قد انكشف وبقي بعضه مذهباً، لكن في

القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي كان من الحديد المكسو بالفضة، وطول القفل شبر.

انظر: كتاب الاستبصار، ص ١٧: ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٦.

(٦) ابن جبير، رحلة، ص ٦٢.

(٧) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٦.

(٨) ابن جبير، رحلة، ص ٦٢.

والجمعة من شهر شوال،^(١) وفي موسم الحج يفتح باب الكعبة يومياً.^(٢) بينما يؤكد الفاسي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨ م) أن فتح باب الكعبة يوم الاثنين قد ترك ، ولكن الباب كان يفتح في يوم الجمعة من كل أسبوع ، وفي أوقات متعددة من السنة منها : بكرة يوم الثاني عشر من ربيع الأول ، وبكرة التاسع والعشرين من رجب ، وبكرة يوم عيد الفطر ، وبكرة السادس والعشرين من ذي القعدة ، وفي أيام موسم الحج.^(٣)

أما عن مراسم فتح باب الكعبة فيذكر ابن جبير أنه كان يوضع كرسيّاً شبه المنبر، له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها ، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة ، فيكون درجة الأعلى متصلاً بالعتبة الكريمة ، ثم يصعد كبير الشيبين^(٤) (الذين لهم سدانة البيت) ويده المفتاح الكريم، ومعه السدنة ، فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى بالبرقع ، خلال ما يفتح رئيسهم الباب ، فإذا فتحه قبل العتبة الشريفة ، ودخل

(١) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٥٥ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ، ص ١٨٥ .

(٣) الفاسي ، شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٤) مفتاح باب الكعبة على مر التاريخ الإسلامي في يد الشيبين لأن الرسول عليه السلام ولى الحجابة (تولي أمر الكعبة وفتح بابها واغلاقه) إلى بني شيبه الذين لهم سدانة البيت وهم من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبه بن طلحة بن عبد الدار ، ولهم على حكام مصر خلع ورواتب شهرية ترسل إليهم. لمزيد من المعلومات انظر: ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ١٥٤ . الفاسي ، شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٢١١ - ٢١٢

البيت وحده، وسد الباب، وأقام قدر ما تركع ركعتين، ثم يدخل سائر الشيبين ويسدون الباب أيضاً ويركعون، ثم يفتح الباب، ويبادر الناس بالدخول فيصلي كل واحد ركعتين تحية ويخرج، وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة، وقلوب ضارعة، وأيد مبسوطة إلى الله، فإذا فتح كبروا ونادوا: "اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين".^(١)

أما كسوة الكعبة، فقد كساها الرسول عليه السلام بالثياب اليمنية، ثم كساها الخلفاء الراشدون بالقباطي (ثياب من الكتان الأبيض)، ثم كسيت في فترة لاحقة بالديباج الملون،^(٢) وخلال فترة خضوع الحجاز للخلافة الفاطمية (٣٦٦هـ / ٩٦٦م - ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م) صارت الكعبة تكسى بثوب من الحرير الأبيض، وقد وصف كسوة الكعبة ناصر خسرو بقوله: "وقد طرز من الجانبين، وثخانة كل طرز قدر شبر، والمسافة بين الطرازين عشرة أشبار تقريباً، وهو يشمل دور الكعبة، وقد رسم على جوانب الكسوة الأربعة صور محاريب ملونة ومنقوشة بخيوط ذهبية، وعدد المحاريب في كل جانب ثلاثة محاريب، محراب كبير يتوسط

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٦: انظر أيضاً ابن جبير، رحلة، ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) ابن الضياء، تاريخ مكة، ص ١١٨ - ١٢١. ولمزيد من المعلومات حول كسوة الكعبة في الإسلام انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ١٩٤ - ٢٠٥، الأزرق، أخبار مكة، ج ١، ص ٢٤٩ - ٢٦٤، الشنوفي، علي: مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين (٩٢٢ - ١٣١٨ هـ / ١٥١٧ - ١٩٠٠ م)، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقق، بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٩ م، ص ١٣ - ١٤.

محرايين صغيرين، وبذلك يكون عدد المحاريب المرسومة على الكسوة إثنا عشر محراباً.^(١)

وخلال فترة خضوع الحجاز للسيادة العباسية (٤٦٢هـ / ١٠٦٩م - ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) كسيت الكعبة بالحرير الأخضر وقد وصف ذلك ابن جبير بقوله: "وسقف البيت مجلل بكساء من الحرير الملون، وظاهر الكعبة كلها من الأربعة جوانب مكسو بستور من الحرير الأخضر وسداها قطن، وفي أعلاها رسم بالحرير الأحمر، وفيه مكتوب: ((إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة))"،^(٢) وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون ستراً^(٣) ويضيف ابن جبير: "ومجمع الستور في الأركان الأربعة مخيط إلى أزيد من قامة، ثم منها إلى أعلاها تتصل بعري من حديد يدخل بعضها في بعض، واستدار أيضاً بأعلاها على جوانب السطح تكفيث ثان وقعت في أعالي الستور في حلقات حديد على تلك الصفة المذكورة، فجاءت الكسوة المباركة مخيطة الأعلى والأسفل وثيقة الأزرار، لا تخلع - أي يتم تغييرها - من عام إلى عام عند تجديدها".^(٤)

وخلال فترة خضوع الحجاز للمماليك في القاهرة (٦٥٦هـ / ١٢٥٠م - ٩٢٢هـ / ١٥١٦م) كسيت الكعبة بالحرير الأسود، وقد

(١) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٥١.

(٢) آل عمران: آية ٩٦ .

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٥٤، ١٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦٢، ١٤١.

وصف ذلك ابن بطوطة بقوله: "هي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان، وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض، قوله تعالى: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾^(١) وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها"^(٢) ويذكر ابن الضياء المكي المتوفى سنة (٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) تفاصيل أكثر عن كسوة الكعبة في العصر المملوكي، وفي ذلك يقول: "وكسوة الكعبة الآن سوداء من حرير، وبطانتها من كتان أبيض، وهي أربعة وأربعون شقة كل شقة بطول الكعبة.. والكسوة.. طراز مُدَوَّر بالكعبة بين الطراز إلى الأرض قريب من عشرين ذراعاً، وعرض الطراز ذراعان إلا شيئاً يسيراً، مكتوب في الطراز على جانب وجه الكعبة بعد البسملة ﴿إن أول بيت وضع للناس.. إلى قوله تعالى ... غني عن العالمين﴾^(٣) صدق الله العظيم، وبين الركنين اليمانيين مكتوب بعد البسملة: ﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام - إلى قوله تعالى - بكل شيء عليم﴾^(٤) صدق الله العظيم. وبين الركن اليماني والغربي مكتوب بعد البسملة ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل - إلى قوله تعالى - انك

(١) المائدة: آية ٩٧ .

(٢) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٥ .

(٣) آل عمران، الآيات ، ٩٦ - ٩٧ .

(٤) المائدة: آية ٩٧ .

أنت التواب الرحيم»^(١) صدق الله العظيم، وبين الركن الغربي والشامي مكتوب بعد البسملة كما أمر بعمل هذه الكسوة الشريفة الفقير إلى الله تعالى السلطان فلان اسم ملك مصر".^(٢) وكانت الكعبة تكسى في عهد كل من ابن جبير وابن بطوطة في الثالث عشر من ذي الحجة.^(٣)

ويذكر ابن بطوطة بعض عجائب الكعبة بقوله: "ومن عجائب الآيات في الكعبة الشريفة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمة لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق منهم، ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبداً ليلاً ولا نهاراً، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف".^(٤)

وللحرم تسعة عشر باباً، أكثرها مفتوحة على أبواب عدة كما يؤكد ابن جبير وابن بطوطة،^(٥) لكن روايات الرحالة والجغرافيين تختلف حول عددها وأسمائها.^(٦)

(١) البقرة: آية ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) ابن الضياء، تاريخ مكة، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ١٤١؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٥. بينما يؤكد الفاسي أن الكعبة كانت تكسى في عهدة في يوم عيد النحر على الأغلب. الفاسي، العقد الثمين، ج ١، ص ٢٠٤ .

(٤) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٧؛ انظر أيضاً: ابن جبير، رحلة، ص ٦٨ .

(٥) ابن جبير، رحلة، ص ٧٣ - ٧٤، ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٦) يذكر ناصر خسرو أن أبواب المسجد الحرام ثمانية عشر باباً، في حين مصنف كتاب الاستبصار يذكر أن عددها سبعة عشر باباً، لكن كل من ابن جبير وابن بطوطة وابن ضياء المكي والفاسي

يذكر ابن جبير أن للحرم سبع صوامع (مآذن) : أربعة في الأربعة جوانب، وواحدة على دار الندوة، وأخرى على باب الصفاء، وأخرى على باب إبراهيم،^(١) وفي عهد ابن بطوطة والفاشي كان للحرم خمس صوامع، إحداهن على ركن أبي قبيس عند باب الصفا، والأخرى على ركن باب بني شيبه، والثالثة على باب دار الندوة، والرابعة على ركن باب السدة، والخامسة على ركن جياذ.^(٢) " وحول الحرم الشريف دور كثيرة، لها مناظر وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم، وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام، ودور لها أبواب تقضي إلى الحرم".^(٣)

يؤكدون أن عدد أبواب المسجد الحرام تسعة عشر باباً وإن حدث بينهما خلاف حول أسماء الأبواب ، بينما يذكر كل من الفاكهي والأزرقى والبكري أن أبواب الحرم في عهدهم ثلاثة وعشرون باباً، لمزيد من المعلومات عن أسماء الأبواب وعددها : انظر، ناصر خسرو، سفرنامه، ١٤٦ - ١٤٨؛ كتاب الاستبصار، ص ٢٤ - ٢٧؛ ابن جبير، رحلة ص ٧٣ - ٧٤؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٩ - ١٦٠؛ ابن ضياء، تاريخ مكة، ص ١٥٥ - ١٥٨، الفاكهي ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي (من علماء القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) ، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، جزءان ، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ج٢ ، ص١٨٨ - ١٩٨ ، الأزرقى ، أخبار مكة ، ج٢ ، ص ٨٦ - ٩٤ ، البكري ، المسالك والممالك ، ج١ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ . الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٨١ - ٣٨٥ .

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٦١. ولمزيد من المعلومات عن صوامع المسجد الحرام انظر: الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٨ .

(٢) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٦٠. الفاسي ، شفاء الغرام ، ج١ ، ص ٣٨ .

(٣) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٦١؛ ابن جبير، رحلة، ص ٧٢ .

المشاهد المقدسة قرب المسجد الحرام :

- قبة الوحي: وهي في دار خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضي الله عنها،^(١) بمقربة من باب الرسول عليه السلام، وفي البيت قبة صغيرة، وبمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

- الصفا والمروة: من باب الصفا (أحد أبواب الحرم) إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله أربع عشرة درجة، وبين الصفا والمروة أربع مائة وثلاث وتسعون خطوة، وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس ولحد كبير، وسعة المروة سبع عشر خطوة.^(٢)

- موضع مولد الرسول عليه السلام: والترية الطاهرة التي هي أول ترية مست جسمه الطاهر، بني عليها مسجد لم ير أحفل بناء منه، يفتح هذا الموضع المبارك فيدخله الناس متبركين به في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، وهو يوم مشهود بمكة دائماً.^(٣)

- قبة بين الصفا والمروة: تنسب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكن ابن جبير يؤكد إنها قبة لحفيدة عمر بن عبد العزيز رضي

(١) خديجة بنت خويلد زوجة رسول الله عليه السلام، توفية قبل الهجرة النبوية بثلاثة أعوام أي بحدود سنة ٦١٩م. أنظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع القرشي المعروف بأبي الفداء الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : البداية والنهاية، ١٦ جزء، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، طه، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م، ج ٣، ص ١٢٥ - ١٢٨.

(٢) ابن بطوطة، رحلة ص ١٦١؛ ابن جبير، ص ٧٥ - ٧٦.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ٨٢.

اللَّهُ عنه وفيها كان يجلس للحكم أيام توليه مكة^(١)

المشاهد المقدسة خارج مكة :

مِنَى: مدينة عظيمة الآثار، واسعة الاختطاط، تقع على بعد فرسخ من مكة طولها ميلان،^(٢) تعمر أيام موسم الحج، وتخلو بقية السنة إلا من يحفظها، ومِنَى شعبان فيها أرقته، والمسجد في الشارع الأيمن، بها آثار ومصانع وقياسر وحوانيت حسنة البناء بالحجر وخشب الساج، وهي بين جبلين يطلان عليها.^(٣)

المزدلفة: بسيط من الأرض فسيح بين جبلين، وحولها مصانع وصهاريج للماء، وهي تقع على فرسخ من مِنَى، بها مصلّى وسقاية ومنارة وبرك عدة.^(٤)

عرفة: لها ثلاثة أسماء هي: عرفة، وجَمْع، والمشعر الحرام، وعرفات بسيط من الأرض فسيح، تحديق به جبال كثيرة، وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة، وفيه الموقف وفيما حوله، وجبل الرحمة قائم وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال، وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض، وفي أعلاه قبة، وفي وسطها مسجد يتزاحم الناس

(١) المصدر نفسه، ص ٨٢ - ٨٣..

(٢) الميل: يساوي ٤٠٠ ذراع شرعية ٣/١ فرسخ أي حوالي ٢ كم. انظر: هنتس، المكايل والأوزان، ص ٩٥.

(٣) ابن جبير، رحلة، ص ١٢١: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(٤) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٣: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

للصلاة فيه، وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات، وفي قبلته جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيها الناس، وقد وصف ابن جبير المشعر الحرام في يوم عرفة سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م بقوله: "واتقد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعل من الشمع المسرج، وأما مسجده المذكور فعاد كله نوراً، فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به، وعلى هذه الصفة كان جبل الرحمة، ومسجده ليلة الجمعة".^(١)

التعظيم: وهو على فرسخ من مكة، ومنه يعتمر أهل مكة، وهو أدنى الحل إلى الحرم، وبه مساجد ثلاثة، وطريق التعظيم طريق فسيح، والناس يتحرون كنسه في كل يوم رغبة في الأجر والثواب من الله تعالى، لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافياً، وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة.

ثنية كدوى: تقع بأعلى مكة، ومنها دخل الرسول عليه السلام في حجة الوداع إلى مكة، وهي بين جبلين.

ذو طُوى: واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصاص دون ثنية كدوى.

الحجون: موضع جبانة مكة خارج باب المعلى، وبهذه الجبانة دفن جم غفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والأولياء.^(٢)

(١) ابن جبير، رحلة، ص ١٣٩؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٣ - ١٨٤..

(٢) لمزيد من المعلومات انظر: ابن بطوطة، رحلة، ص ١٦٣ - ١٦٥.

الحياة الاقتصادية في مكة المكرمة:

مكة تقع في واد غير ذي زرع، فليس بجميع مكة شجر مثمر إلا أشجار نخيل يسيرة متفرقة،^(١) ولا زرع بها ولا حنطة،^(٢) لكن سبقت لها الدعوة المباركة من سيدنا إبراهيم عليه السلام كما ورد في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى المتضمن عن خليله إبراهيم عليه السلام ﴿ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾^(٣) فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوي إليها من مختلف أنحاء البلاد، "فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة والثمرات تجبى إليها من كل مكان، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر".^(٤)

ويضيف ابن جبير: "ولو لم يكن لها من المتاجر إلا أوقات المواسم ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلاً عما يتبعه من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر

(١) ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص ١٨٧؛ ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (تبعده سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) صورة الأرض، ليدن، بريل، ط٢، ١٩٦٧ م، ص ٣٧.

(٢) الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي ويعرف بابن عبد المنعم (ت ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥ م، ص ٩٤.

(٣) سورة إبراهيم، آية ٣٧..

(٤) ابن جبير، رحلة، ص ٨٦.

الأحجار، ومن أنواع الطيب، كالمسك، والكافور، والعنبر والعود، والعقاقير الهندية إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخرسانية، والبضائع المغربية إلى مالا ينحصر ولا ينضب، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم".^(١)

ويؤكد ابن جبير أن مكة تغص بالنعم والفواكه التي تجلب إليها من الحجاز وسائر الأقطار، ومن النعم والأرزاق التي شاهدها : التين، والعنب، والرمان، والسفرجل، والخوخ، والأترج والجوز، والبطيخ، والقثاء، والخيار، والبادنجان، واليقطين، والسلجم، والجزر، والكرنب، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة، "ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول".^(٢)

فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجبى لها، وفي ذلك يقول ابن بطوطة: "ولقد أكلت بها من الفواكه والعنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها

(١) المصدر نفسه، ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.

لا يماثله سواه طيباً وحلاوة، واللحوم بها سمان لذيدان الطعوم، وكل ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه"،^(١) ومعظم فواكه مكة تجلب من الطائف.^(٢)

ويحضر إلى مكة في موسم الحج قبائل من اليمن تعرف بالسرو " فيحضرون ضروب من الأطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبيا إلى ما دونها، والسمن والعسل والزبيب الأسود، واللوز، والفواكه اليابسة، " فتجمع ميرتهم بين الطعام والفاكهة، ويصلون في الآلاف من العدد رجالاً وجمالاً موقرة بجميع ما ذكر، فيرغدون معاش أهل البلاد والمجاورين فيه يتقوتون ويدخرون، وترخص الأسعار، وتعم المرافق فيعد منها الناس ما يكفيهم لعامهم إلى ميرة أخرى، ولولا هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش"، ومن العجب كما يذكر ابن جبیر أن قبائل السرو لا يبيعون ما يحضرونه بدينار ولا بدرهم، وإنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشمل، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقتعة والملاحف المتان وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويباعونهم به ويشارونهم^(٣)

وتشتهر مكة بطيب ألبانها، وكل ما يصنع منها من السمن " فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة^(٤) ولحوم ضأنها أطيب

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٥٤ - ١٥٥..

(٢) ابن جبیر، رحلة، ص ٨٨ - ٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٨.

لحم يؤكل في الدنيا لبركة مراعيها هذا على إفراط سمنه .. فتجده هنيئاً رفصاً يذوب في الفم قبل أن يلاك مضغاً، ويسرع لخفته عن المعدة، انهضاماً، ويضيف ابن جبیر ويكثر في مكة صناعة الحلوى " فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى، إنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة" ^(١).

أما عن أسواق مكة فيؤكد ابن جبیر أن هناك سوقاً عظيماً، يحيط بالمسجد الحرام " يباع فيه من الدقيق إلى العقيق، ومن البُرِّ إلى الدر، إلى غير ذلك من السلع .. ومعظم السوق في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال، وفي البلاط الآخذ من الشمال إلى الشرق" ^(٢)، وما بين الصفا والمروة سوق كبير يباع فيه جميع الفواكه والحبوب واللحوم والتمور والسمن وسائر المبيعات الطعمية، "والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين" ^(٣)، وضمن هذا السوق عشرون دكاناً للحلاقة، وسوق للعطارين يباع فيه الأدوية والعقاقير الطبية والحشائش، ^(٤) وفي منى سوق من "أعظم الأسواق يباع فيها من الجواهر النفيس إلى أدنى الخرز، إلى غير ذلك من الأمتعة

(١) ابن جبیر، رحلة، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٣٩.

وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الآفاق" ^(١) وتميزت مكة في سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م وهو العام الذي زارها فيه ابن جبير بكثرة نعمها ولين أسعارها واستقرار الأمن والأمان فيها. ^(٢) وذلك لاهتمام السلطان صلاح الدين الأيوبي ^(٣) بأمور دولته الاقتصادية في مصر وبلاد الشام والحجاز، فقد اسقط المكوس ^(٤) عن التجار وأعلن عن التجارة الحرة ^(٥)، كذلك اسقط المكوس التي كانت تجبى من الحجاج من قبل أمير مكة والتي كان مقدارها سبعة دنانير ونصف عن كل حاج، وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يرسل إلى مكة. ^(٦)

(١) ابن جبير، رحلة، ص ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٣) صلاح الدين الأيوبي: ولد في سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م، وتقلد الوزارة في مصر سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م، وملك مصر سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ثم امتد نفوذه إلى اليمن والحجاز ومعظم الشام، وقاتل الإفرنج أشد القتال، وتوفي في قلعة دمشق سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م. لمزيد من المعلومات انظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ /) الكامل في التاريخ، ١٠ أجزاء، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م، ج ١٠، ص ١١ - ٢٢٥.

(٤) المكوس: ضرائب كانت تفرض على كل ما يباع ويشترى حتى على شرب ماء النيل، وتتراوح بين (١٠ - ٣٠ %) من ثمن البضاعة. أنظر: ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٤٣ - ٤٤، ابن مماتي، أسعد ابن المهذب بن أبي مليح الأيوبي (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٤٣ م، ص ٣٢٦.

(٥) ابن جبير، رحلة، ص ٢٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٨ - ٢٩، ٤٨ - ٤٩.

صور من الحياة الدينية والاجتماعية في مكة المكرمة

وصف أهل مكة

لقد أعطى ابن بطوطة وصفاً جميلاً لسكان مكة وكرمهم وزهدهم، ومكارم أخلاقهم، وإيثارهم للضعفاء والمنقطعين، وفي ذلك يقول: "ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء، ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها الطعام للفقراء والمنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم، وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران حيث يطبخ الناس أخبازهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين، فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يرددهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطيهم ثلثها أو نصفها عن طيب نفس ومن غير ضجر، ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منه قفتان كبيرى وصغرى، وهم يسمون القفة مكتلاً، فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أن أحداً من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما يحمل إلى أصحابه على أتم الوجوه، ولهم على ذلك أجرة معلومة من الفلوس، وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم

ناصعة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيراً، ويكثر السواك بعيدان الأراك الأخضر،^(١) ونساء مكة فائقات الحسن، بارعات الجمال، وذوات صلاح وعفاف، وهن يكثرن التطيب حتى أن إحداهن لتبيت طاوية وتشري بقوتها طيباً".^(٢)

ويضيف ابن بطوطة بأن "أهل مكة لا يأكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر، ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر، ولذلك صحت أبدانهم، وقلت فيهم الأمراض والعاهات".^(٣)

ويذكر ناصر خسرو أن عدد سكان مكة في سنة ٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م، يقدر بألفي نسمة، وخمسمائة من الغرباء والمجاورين، ويبدو أن قلة عدد السكان ناتج عن مغادرة أعداد ضخمة من أهالي المدينة إلى مدن أخرى لعموم القحط وشدة الجوع والغلاء الذي أصاب البلاد في العام المذكور أعلاه، ويؤكد ناصر خسرو أن هناك كثيراً من المنازل في مكة يملكها أقوام من خراسان وبلاد ما وراء النهر والعراق، كما أن بعض الخلفاء العباسيين بنوا كثيراً من الدور والمنازل بعضها قد تحول إلى خراب، والبعض الآخر صار ملكاً خاصاً

(١) الأراك من أرك: وهو شجر معروف وهو شجر السواك يستاك بفروعه، ومنه تتخذ المساويك من الفروع والعروق، وأجوده عند الناس العروق وهي تكون واسعة محللاً. انظر: ابن منظور، لسان

العرب، ج ١، مادة أرك، ص ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

لبعض السكان.^(١)

عادات أهل مكة في الصلاة في الحرم:

للحرم أربعة أئمة على المذاهب الأربعة السنة، وإمام خامس للزيدية، وجمهور السكان بمكة بما فيهم العلماء والفقهاء على المذهب الشافعي، بينما أشرف المدينة^(٢) على مذهب الزيدية، وهم يزيدون في الأذان: "حيّ على خير العمل" إثر قول المؤذن: "حي على الفلاح"، ولا يجمعون مع الناس إنما يصلون الظهر أربعاً، ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة من صلاتها.

ومن عادة أهل مكة كما يذكر كل من ابن جبير وابن بطوطة أن يصلي إمام الشافعية أول الأئمة لكون جمهور السكان على مذهبه، وهو المقدم من قبل أشرف المدينة، وصلاته خلف مقام إبراهيم الخليل عليه السلام، في حطيم^(٣) له هنالك بديع، وبعد الإمام الشافعي يصلي إمام المالكية والحنبلية في وقت واحد، فإمام المالكية يصلي في محراب قبالة الركن اليماني، وإمام الحنبلية

(١) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ١٤٠.

(٢) أشرف مكة، هم من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب، وعن أشرف مكة عبر التاريخ الإسلامي، انظر: عبد الغني، عارف، تاريخ أمراء مكة المكرمة، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٢م، ص ٨٥ وما بعدها.

(٣) الحطيم: خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على تلك الصفة، وقد عقدت على أرجل مجصصة، وعرض على أعلى الخشب خشبه أخرى فيها خطا طيف حديد يعقل فيها قناديل زجاج، ويقع مابين الحجر الأسود وقام إبراهيم وزمزم وحجر إسماعيل انظر: ابن جبير، رحلة، ص ٧١؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٧٧. الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٣١٨ - ٣٢١.

يصلي في محراب ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبالة الميزاب المكرم تحت حطيم له هناك، ويوضع بين يدي الأئمة في محاربهم الشمع، وترتيب الأئمة هكذا في الصلوات الأربع، أما في صلاة المغرب فيصلونها في وقت واحد لضيق وقتها، لذلك يدخل على المصلين من ذلك سهو وخلط، فربما ركع المالكى بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي.^(١)

وفي يوم الجمعة يلصق المنبر المبارك إلى صفح الكعبة الشريفة، ويكون الخطيب مستقبلاً مقام إبراهيم عليه السلام مرتدياً ثوباً أسود، وعمامة سوداء، وعليه طيلسان أسود، وبين يديه أحد القومة في يده الفرقة - عمود في طرفه جلد رقيق مفتول - ينفضها في الهواء، فتصدر صوتاً عالياً إعلماً بخروج الخطيب، يسمعها من بداخل الحرم وخارجه، ويستمر في نفضها حتى يقرب الخطيب من

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٧٠ - ٧١؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٧٧. يذكر الفاسي أن الأئمة الأربعة كانوا يصلون المغرب في وقت واحد حتى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م، فورد أمر السلطان المملوكي الملك الناصر زين الدين فرج بن الملك الظاهر برقوق الذي تولى السلطة في دولة المماليك (٨٠١ هـ / ١٤٠١ م - ٨١٥ هـ / ١٤١٤ م) إلى أمير مكة بأن الإمام الشافعي يصلي المغرب في المسجد الحرام بمفرده دون الأئمة الباقين، واستمر هذا الحال إلى سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م فاعاد السلطان المملوكي الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الذي تولى السلطة في دولة المماليك في الفترة ما بين (٨١٥ هـ / ١٤١٤ م - ٨٢٤ هـ / ١٤٢٣ م) الأمر على ما كان عليه قبل ذلك. لمزيد من المعلومات انظر: الفاسي، شفاء الغرام، ج ١، ص ٣٩٣ - ٣٩٤. ولمزيد من المعلومات عن السلطان الملك الناصر، والسلطان الملك المؤيد. انظر: المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥ / ١٤٤١ م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط، ٣ أجزاء، دار صادر، بيروت، د. ت. ج ٢، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

المنبر، فيقبل الحجر الأسود ويدعو عنده، ثم يقصد المنبر، والمؤذن الزمزمي - رئيس المؤذنين - بين يديه يلبس السواد وعلى عاتقه السيف يمسكه بيده، وعند صعود الخطيب أول درجة من درج المنبر يقلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة في الدرج يسمع بها الحاضرين إيذاناً بصعوده إلى المنبر، ثم يضرب في الدرج الثاني ضربة، وأخرى في الثالث، وأخرى عندما يستوي في أعلى الدرج، ثم يهتف بدعاء خفي وهو يستقبل الكعبة، بعدها يطرح تحية الإسلام على جموع المصلين، و يقعد ويؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في وقت واحد، وبعد إكمال الأذان يبدأ الخطيب في خطبته التي يكثر فيها الصلاة على الرسول عليه السلام، والترضي على الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة رضي الله عنهم، ثم يدعو للخليفة أو السلطان - الذي تتبع له الحجاز -، ثم لأمير مكة الحسني، وبعد الفراغ من الخطبة ينصرف، والفرقة أمامه إشعاراً بانتهاء الصلاة.^(١)

الاحتفالات باستهلال الشهور وعيدي الفطر والأضحى:

يذكر ابن جبير أن أهل مكة: "عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضاً ويتغافرون ويدعو بعضهم لبعض، كفعلهم في الأعياد".^(٢)

وعادة أهل مكة في استهلال الشهور أن يأتي أمير مكة برفقة

(١) ابن جبير، رحلة، ص ٦٥ - ٦٦: ابن بطوطة، رحلة، ص ١٧٧ - ١٧٨.

(٢) ابن جبير، رحلة، ص ٩١.

قادته في أول يوم من الشهر مرتدياً البياض ، وعليه عمامة بيضاء متقلداً سيفاً ، فيصلي ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام، ثم يقبل الحجر الأسود، ويشرع في الطواف سبعة أشواط، وعند إكمال كل شوط يقبل الحجر الأسود، وبعد الانتهاء من الطواف يصلي ركعتين عند الملتزم، وركعتين خلف المقام ثم ينصرف، وأثناء طواف الأمير يرتفع صوت رئيس المؤذنين بمدحه والدعاء له وتهنئته بدخول الشهر.^(١)

وتبلغ احتفالات أهل مكة ذروتها في غرة شهر رجب، وليلة نصف شعبان ، وغرة كل من رمضان وشعبان وذو الحجة، وأحياناً في معظم تلك الشهور، ففي غرة رجب يحتفل أهل مكة والمناطق المجاورة لها بالاحتفال لم يسمع مثله، فأمر مكة يأمر بضرب الطبول والبوقات إشعاراً بدخول الشهر، ثم يخرج في أول يوم منه راكباً، ومعه أهل مكة فرساناً ورجالاً على ترتيب عجيب، ويلعب الجميع بالأسلحة بين يديه، والفرسان يجولون ويجرون، والرجال يتواثبون ويرمون بحربهم إلى الهواء ويلقفونها^(٢)

ويصف ابن جبير احتفال أهل مكة في غرة رجب بقوله: " انحشد له أهل مكة على بكرة أبيهم، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة وحارة حارة شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالة، فاجتمع منهم

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٧٨؛ انظر أيضاً ابن جبير، رحلة، ص ٩٦ - ٩٧.

(٢) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٧٨ - ١٧٩.

عدد لا يحصى كثرة، يتعجب المعايين لهم لوفور عددهم .. فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب، فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها، والرجالة يتواثبون ويتشاقفون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وحجفاً وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض، والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التي يستجتنون بها، ... وكانوا يرمون بالحراب إلى الهواء ويبادرون إليها لقفاً بأيديهم وهي قد تصوبت أسنتها على رؤوسهم وهم في زحام لا يمكن فيه المجال ... إلى أن خرج الأمير زحف بين قواده، وأبناؤه أمامه، وقد قاربوا سن الشباب، والرايات تخفق أمامه، والطبول والدبابد بين يديه، والسكينة تفيض عليه، وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين^(١)، ثم يقوم الأمير ومن بصحبته من أهل مكة بالطواف حول الكعبة ثم ينصرف.

وأوقات شهر رجب كله معمورة بالعبادة، وبخاصة غرة شهر رجب، وليلتي الخامس عشر والسابع والعشرين منه، حيث يستعدون لها قبل ذلك بأيام، فشوارع مكة تغص بالهوادج المشدودة على الإبل المكسوة بأنواع الحرير وثياب الكتان الرفيعة بما يتناسب وسعة أحوال أربابها، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته، "والجمال مزينة بقلائد الحرير، وأستار الهوادج ضافية تكاد تمس الأرض فهي كالقباب المضروبة، ويخرجون إلى ميقات التتعيم، فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج، والنيران مشعلة بجانبتي الطريق، والشمع والمشاعل

(١) ابن جبیر، رحلة، ص ٩٥ - ١٠٤.

أمام الهودج، والجبال تجيب بصداها إهلال المهللين، فترق النفوس، وتتهمل الدموع، فإذا قضوا العمرة، وطافوا بالبيت خرجوا إلى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شيء من الليل، والمسعى متقد السرج غاص بالناس، والساعات على هودجهن، والمسجد الحرام يتلأل نوراً، وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة ألا كمية، لأنهم يحرمون بها من أكمة مسجد عائشة رضي الله عنها^(١)، ويسمونها ابن جبير بالعمرة الرجبية، وهي عند أهل مكة "أخت الوقفة العرفية".^(٢)

ويحضر عمرة رجب جمع كبير يتوافدون من أنحاء الجزيرة العربية، وبخاصة من اليمن حيث تخرج قبائل تسمى بالسرو، فيجتمعون بين النية في العمرة وميرة البلد، فيجلبون إلى مكة ضروباً من الأطعمة والحبوب والفواكه ونحوها.^(٣)

والعمرة والعبادة في رجب متصلة ليلاً ونهاراً، يقول ابن جبير: "وبالجملة فالشهر المبارك كله معمور بأنواع العبادات من العمرة وسواها، ويختص أوله ونصفه من ذلك بخط متميز، وكذلك السابع والعشرين منه"^(٤) والبيت يفتح في كل يوم من هذا الشهر المبارك، فإذا حضر يوم التاسع والعشرين منه أفرد للنساء خاصة، "ولم تبق

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٧٩.

(٢) ابن جبير، رحلة، ص ٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٠.

(٤) ابن جبير، رحلة، ص ١٠١.

امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ذلك اليوم" ^(١) فيظهر للنساء بمكة في ذلك اليوم، احتفال عظيم، فهو عندهن يوم زينتهن المشهور، لأنه في طيلة العام لا يستطعن الاقتراب ولمس الحجر المبارك لشدة الازدحام، إلا في ليلة التاسع والعشرين من رجب الذي أفرد للنساء، وفي اليوم الثاني منه يتم غسل الكعبة بماء زمزم تكريماً وتزيهاً لها، لأن كثيراً من النساء يدخلن أبناءهن الصغار والرضع ^(٢).

وفي أثناء الطواف: "يلاقي الرجال بعضهم بعضاً فيتصافحون ويتهادون الدعاء والتغافر بينهم، والنساء كذلك، والكل منهم قد لبس أفخر ثيابه، واحتفل احتفال أهل البلاد للأعياد، وأما أهل البلد الأمين فهذا الموسم عيدهم، له يعبأون وله يحتفلون وفي المباهاة فيه يتنافسون وله يعظمون، وفيه تنفق أسواقهم وصنائعهم، يقدمون النظر في ذلك والاستعداد له بأشهر" ^(٣).

وتعد ليلة النصف من شعبان من الليالي المعظمة عند أهل مكة، فيبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والصلاة والطواف أفراداً وجماعات ويجتمعون في الحرم المقدس جماعات، لكل جماعة إمام حسب المذاهب الفقهية، ويكثرون من إيقاد المصابيح والمشاعل والسروج، فيصلون مائة ركعة بخمسين تسليمه، يقرؤون الفاتحة في

(١) ابن جبير، رحلة، ص ١٠١، ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٧ - ٩٨.

كل ركعة فوسورة الإخلاص يكررونها عشر مرات في كل ركعة، وبعض الناس يصلون في الحجر منفردين، وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف، وآخرون يعتمرون.^(١)

وتضرب الطبول والدبابت عند أمير مكة احتفالاً برؤية هلال رمضان ، وتجدد حصر المسجد الحرام، وتوقد كثير من الشموع والمشاعل وغير ذلك من الآلات حتى يتلأأ البيت الحرام نوراً، ويسطع بهجة وإشراقاً، ويتفرق أئمة الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية لإقامة التراويح، أما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة، "وكاد لا يبقى في المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلي بجماعة خلفه، فيرتج المسجد لأصوات القراءة من كل ناحية، فتعاين الأبصار، وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمعاً تتخلع له النفوس خشية ورقة"، ويعد الإمام الشافعي من أكثر الأئمة اجتهاداً في صلاة التراويح، فيصلي عشرين ركعة بعشر تسليمات، وبعد كل أربع ركعات يطوف مع جماعته سبعة أشواط، ويبقى هكذا إلى أن يفرغ من صلاة التراويح، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون، ولايزيد سائر الأئمة على ذلك شيئاً وبعض الناس لا يصلون التراويح وإنما يكثرون من الطواف والصلاة في الحجر لاعتقادهم أن ذلك أفضل ما يغتنم.^(٢)

(١) ابن جبير، رحلة، ص ١٠٦ - ١٠٧؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨١.

(٢) لمزيد من المعلومات: انظر: ابن جبير، رحلة، ص ١٠٨ - ١١٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨١ - ١٨٢.

ويتولى المؤذنون التسحير طيلة شهر رمضان في جميع منائر المسجد ، ويتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة الموجودة في الركن الشرقي من الحرم ، بسبب قربها من دار الأمير، ويصف ذلك ابن جبير بقوله: " فيقوم في وقت السحور فيها داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه، وقد نصبت في أعلى الصومعة خشبه طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان ، يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران ، لا يزالان يقدان مدة التسحير، فإذا قرب تبين خيطي الفجر ووقع الإيدان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبه وبدأ بالأذان، وثوب المؤذنون من كل ناحية بالأذان، وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة، فمن لم يسمع نداء التسحير ممن يبعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة، فإذا لم يبصرهما علم أن الوقت قد انقطع".^(١)

وفي كل ليلة وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان يختمون القرآن الكريم، ويحضر الختم الفقهاء والقاضي والأمراء ، حيث يقوم أحد أبناء كبراء أهل مكة بذلك ، وينصب له منبر مزين بالحرير، ويوقد الشمع ، ويقوم بإلقاء خطبته عليهم ، فإذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس إلى منزله فيطعمهم ويحضر لهم الحلوى ، وكذلك الأمر في جميع ليالي الوتر، وأعظم تلك الليالي ليلة السابع والعشرين ، فيكثر من إيقاد الشموع والقناديل، ويختم بها القرآن

(١) ابن جبير، رحلة، ص ١٠٩ - ١١٠: انظر أيضاً ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٢.

خلف المقام، فيصلي الإمام فريضة العشاء الآخرة، ثم بقراءة سورة القدر، وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها، وفي تلك الساعة يمسك جميع الأئمة عن التراويح تعظيماً بختمة المقام، وفي ليلة تسع وعشرين يختتم بها سائر أئمة التراويح ملتزمين رسم الخطبة أثر الختمة.^(١)

وعند رؤية هلال شوال يكثر أهل مكة من إيقاد الشموع والمشاعل والمصابيح، وتوقد السرج في صوامع المسجد الحرام من جميع جهاتها، ويوقد سطح الحرم كله، وترتفع أصوات المؤذنون في التهليل والتكبير والتسبيح، ويكثر الناس من الصلاة والطواف والذكر والدعاء، وبعد صلاة الفجر تبدأ مراسم الاحتفال بالعيد، ويصف ابن بطوطة احتفال أهل مكة بعيد الفطر بقوله: "فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبة العيد، ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بالحرم الشريف، الذي يصلون به صلاة العيد، لأنه لا يوجد موضع أفضل منه، ويكون أول من ييكر إلى المسجد الشيبببون، فيفتحون باب الكعبة المقدسة، ويقعد كبيرهم في عتبتها، وسائرهم بين يديه إلى أن يأتي أمير مكة، فيتلقونه، ويطوف بالبيت أسبوعاً (سبع أشواط)، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة، رافعاً صوته بالثناء عليه، والدعاء له ولأخيه كما ذكر، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين، والفرقة أمامه، وهو لابس السواد، فيصلي خلف المقام الكريم، ثم يصعد ويخطب خطبة بليغة، ثم إذا فرغ منها

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٢.

أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلاسل والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى تبركاً بمن فيها من الصحابة وصدور السلف، ثم ينصرفون^(١).

وفي السابع والعشرين من ذي القعدة تشمر أستار الكعبة إلى نحو ارتفاع قامة ونصف من جهاتها الأربعة، صوفاً لها من الأيدي أن تنتهبها، ويسمى ذلك إحرام الكعبة، وهو يوم مشهود بالحرم الشريف، ولا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتى تنقضي الوقفة بعرفة^(٢).

وفي اليوم الأول من ذي الحجة يأمر أمير مكة بضرب الطبول والدباب في أوقات الصلوات إشعاراً منه بالدخول في طقوس الحج، ويستمر في ذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات، وفي اليوم السابع من ذي الحجة يخطب الخطيب خطبة بليغة بعد صلاة الظهر يتحدث فيها عن مناسك الحج ووقفه عرفة، وفي اليوم الثامن يكرر الناس بالصعود إلى منى، فيبيتون ليلة فيها وهم يتفاخرون في إيقاد الشموع والقناديل، وفي اليوم التاسع يرحلون من منى بعد صلاة الفجر إلى عرفة، فيمرون في طريقهم بوادي مُحَسَّر^(٣)، ويهرولون من قبيل السنة، وبين منى

(١) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٢ - ١٨٣؛ انظر أيضاً ابن جبير، رحلة، ص ١١٣ - ١٢٠.

(٢) ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٣.

(٣) وادي مُحَسَّر: هو الحد ما بين المزدلفة ومنى. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ج ٤، ص ١١٩٠ - ١١٩١.

وعرفة خمسة أميال، وكذلك المسافة نفسها بين منى ومكة.

وعرفات بسيط من الأرض فسيح، تحف به جبال كثيرة، وفي آخر البسيط جبل الرحمة (كله حجارة منقطعة عن بعضها البعض)، وفيه الموقف وفيما حوله، وبعد غروب الشمس يبدأ النفر من عرفة إلى المزدلفة، فيصلون فيها المغرب والعشاء جمعاً، وبعد صلاة الفجر يتوجه الحجاج إلى منى، بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام، ومن المزدلفة يصطحب الحجاج معهم حصيات الحجار، وبعد الوصول إلى منى يبادرون رمي جمرة العقبة عند طلوع الشمس من يوم النحر وتقديم الأضاحي، ثم حلقوا وحلوا من كل شيء إلا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الإفاضة، وفي اليوم الثاني يرمي الحجاج عند زوال الشمس بالجمرة الأولى سبع حصيات، وبالوسطى كذلك، وفي اليوم الثالث يتوجه الحجاج إلى مكة، بعد أن يكونوا قد رموا تسعا وأربعين حصاة، وكثير من الحجاج يقيم اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى يرموا سبعين حصاة.^(١)

(١) لمزيد من المعلومات عن مناسك الحج، انظر ابن جبير، رحلة، ص ١٢٠ - ١٤٨؛ ابن بطوطة، رحلة، ص ١٨٣ - ١٨٥.

ويستخلص من البحث النتائج التالية:

١ - سجل ابن جبير وابن بطوطة معلومات دقيقة عن مكة من حيث: موقعها، والجبال المحيطة فيها، ومناخها، وآبارها، وأبوابها، ومشاهدها المقدسة، وأوضاعها الاقتصادية وصفات سكانها، وعاداتهم، والاحتفالات التي تقام فيها.

٢ - تحدث ابن جبير بصورة شمولية عن أوضاع مكة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ثم جاء ابن بطوطة فزار مكة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فجاءت معلوماته عن مكة مطابقة في أغلب الأحيان لما أورده ابن جبير لانه نقل منه كثيراً مع بعض الاختلاف أحياناً في معالجة بعض القضايا.

٣ - مكة مدينة كبيرة مستطيلة متصلة البنيان تقع في بطن واد غير ذي زرع كما أخبر القرآن الكريم بذلك، تحيط بها الجبال من كل جانب، ومناخها حار جداً وبخاصة في فصل الصيف، وأمطارها قليلة، لذلك اقتصاد مكة يعتمد على التجارة، فالتجار يقصدونها من جميع أنحاء العالم الإسلامي، فتغص دائماً بالنعم والفواكه والخضراوات جميعها، وتقام بها الأسواق العظيمة.

٤ - المسجد الحرام يقع في وسط مدينة مكة، وهو قريب من التبريع، والكعبة المشرفة تقع وسط المسجد الحرام، وهي بناء مربع، وقد سجل ابن جبير وابن بطوطة معلومات دقيقة عن بنائهما، ومساحتهما وزخرفتتهما، وأوصافهما، وأبوابهما، وكسوة الكعبة.

٥ - يقيم أهل مكة وسائر المسلمون فيها احتفالات كبرى باستهلال الشهور، وتبلغ الاحتفالات ذروتها في غرة رجب، وليلة نصف شعبان، وغرة كل من رمضان وشوال وذو الحجة، وقد وصف ابن جبير وابن بطوطة هذه الاحتفالات بدقة والتي تتميز بالطابع الديني، ويشتهر أهل مكة بالزهد ومكارم الأخلاق، والإيثار للضعفاء والمنقطعين.



المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

- ١ - ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢) الكامل في التاريخ ، ١٠ أجزاء ، تحقيق محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م.
- ٢ - الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت بعد سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٨م) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، جزآن ، تحقيق رشدي الصالح ملحق ، ط٢ ، مطابع دار الثقافة ، مكة المكرمة ، ١٩٦٥م
- ٣ - ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م):تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف برحلة ابن بطوطة ، شرحه وكتب حواشيه طلال حرب، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٢م
- ٤ - البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م):
- المسالك والممالك ، تحقيق أدريان فان ليؤفن وأندري فيرى ، الدار العربية للكتاب ، ١٩٩٢م
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٤٥م
- ٥ - ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م):تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار المعروف برحلة ابن جبير ، طبعة جديدة ومنقحة بإشراف لجنة تحقيق التراث ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١.

- ٦ - الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الصنهاجي ويعرف بابن عبد المنعم (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥م
- ٧ - ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت بعد سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) : صورة الأرض، ط٢، ليدن، بريل، ١٩٦٧م
- ٨ - ابن الضياء، أبو البقاء محمد بن أحمد المكي الحنفي (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م): تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة، تحقيق علاء إبراهيم الأزهرى وأيمن نصر الأزهرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م
- ٩ - الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) : شفاء الغرام باخبار البلد الحرام، جزآن، تحقيق محمد ابن احمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
- ١٠ - الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي (من علماء القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي)، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، جزآن، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط٢، بيروت، ١٩٩٤م
- ١١ - ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت ٣٣٤هـ / ٩٤٦م): مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨
- ١٢ - ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع القرشي المعروف بأبي الفداء الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : البداية والنهاية، ١٦ جزء تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرون، ط٥، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٩م

١٣ - المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري (ت ٣٩٠هـ / ٩٩٩م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل، ط٢، ١٩٦٧م

١٤ - المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط، ٣ أجزاء دار صادر، بيروت، د. ت.

١٥ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفرقي المصري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م): لسان العرب، ١٨ جزء، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد صادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦م

١٦ - مؤلف مجهول (ق ٦هـ / ١٢م)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥م

١٧ - ابن مماتي، أسعد بن المهذب بن أبي مليح الأيوبي (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، الجمعية الزراعية الملكية، القاهرة، ١٩٤٣م

١٨ - ناصر خسرو، أبو معين الدين القبادياني المروزي (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م): سفرنامه، ترجمة أحمد خالد البدلي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٨٣م

١٩ - ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م): معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م

ثانيا : المراجع:

- ١ - شاكر خصباك ، ابن بطوطة ورحلته ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، د . ت.
- ٢ - الشنوفي ، علي : مكة المكرمة والكعبة المشرفة في كتب الرحالة المسلمين (٩٢٢ - ١٣١٨ هـ / ١٥١٧ - ١٩٠٠ م) ، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق ، بيت الحكمة ، تونس ، ١٩٨٩ م
- ٣ - عارف عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٢ م
- ٤ - هنتس ، فالتر: المكييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ، ١٩٧٠.